فتاة السرك

للأديب محمد أبو المعاطي أبو النجا

كان الجمهور داخل السرك ينصت إلى الأغنيات الشعبية التي يصدح بها « الجرامفون » في فترات الاستراحة ...

وكانت الموائد المحدقة بحلقة اللعب حيث يجلس الرواد المترفون لا تكاد تلقى بالها إلى هذه الأغنيات ، لأن من عادتها كل مساء أن تستقبل في تلك الفترات خطوات « رجاء » فاتنة السرك ، وهي تطوف بها توزع صورها الجميلة لقاء ما يدفعها به الرواد من قروش ...

وكانت رجاء الفتاة التي عرفت طبائع النفوس .. تحرص كل الحرص على أن تصنع لكل صورة إطارا نفسيا خاصا يختلف عادة باختلاف الرواد !

فحين تمر عائدة بمجلس عليها جمع من الشباب كان هذا الإطار يتألف من تلك الابتسامة الساحرة التي يظن كل من يراها أنها له ، ومن تلك الانحناءة الرقيقة للعنق الناعس ، تلك الانحناءة التي تستتبع عادة ميل متصلات شعرها الأشقر الفاتن إلى جانب وجهها في دلال مثير !

وحين تنتقل إلى مائدة أخرى تجلس إليها عائلة ، فإن الإطار يتغير عن ذي قبل ، فتبدو تلك الابتسامة وادعة خاضعة ، ويعتدل العنق المائل ليرتفع بالرأس الصغير في شرود ساحر ، بين لحظة وأخرى تطرف العيون الفاتنة بنظرات كأنها خجولة !

وكان لهذا الإطار المتغاير دخل كبير في تقدير الثمن المناسب لاسورة المهداة ..

وانتهت خطواتها إلى مائدة منفردة تحدق بها عائلة صغيرة قوامها زوج وزوجة في نهاية العقد الثاني ، وطفل صغير !

ولم تكد تمد يدها بالصورة نحو الطفل الذي كان يشير إليها بيديه الصغيرتين حتى أخذها منها ثم هتف بعد أن نظر إليها قليلا ... الله ! ... الصورة دي زيك تمام يا ماما ! ثم أدناها من فمه في سذاجة حلوة وقبلها بطريقة جعلت أبويه يغرقان في الضحك !

ولأول مرة لم تنتبه رجاء إلى ما تصنع بالقطعة الفضية التي أعطاها إياها الزوج ... لم تفكر فيما إذا كان ينبغي أن تأخذها كلها أو تعطيه فكتها ليعطيها هو ما يشاء من قروش ! لم تفكر في شيء من ذلك ، وإنما

وسمعها بلا وعى فى جيبها الخارجى ، وظلت مشاعرها كلها موزعة حائرة كأنما كانت تحاول أن تجمع من الفضاء نبرات ذلك الصوت الصغير البرىء لتسمعه من جديد !

ولأول مرة أيضا نسيت أن تقول كلتها التقليدية « مرسى » ، وإنما مدت يديها لتجمع بينهما ذلك الوجه الصغير وتطبع على وجنتيه قبلتين ناحرتين !

ولأول مرة أيضا نسيت عددا من الوالد كانت تمر برواده كل مساء ... وفى خطى مذعورة كانت تسرع نحو حجرتها الخاصة لتغير ثيابها التى تختلف باختلاف الأدوار !

وكان لا يزال هناك فسحة من الوقت فاستلقت على مقعد عالى مخدرة .. حتى هذه اللحظة لم تكن تفهم حقيقة مشاعرها وإنما كانت تحس كأن هناك أشياء خفية مبهمة تتجاذب تلك المشاعر بل وتمسع بها خيوطا دقيقة متشابكة وتنثرها فى الفضاء .. كانت تحس كأن فراشة ملونة وموزعة على تلك الخيوط الدقيقة المتشابكة ! وروبدا روبدا بدأت هذه الخيوط تتقارب وتجتمع وتلتقى على صورتها فعلا وإذا بالصورة العالم بأسره المسافات !

ما أكثر ما كانت تسمع من همسات الغزل وكلمات الإطراء ! وما أكثر ما كانت ترى فى عيون المتطارة من الولع المثير والهيام الملح ! ولكنها مع هذا كله لم تكن تهتز ، بل ولم تكن تختلج . كانت حتى فى اللحظات الحماسة حين تقف فوق هرم من الأجسام الرياضية المفتولة لتؤدى ألعابها المثيرة ، كانت حتى فى هذه اللحظات تقف لتواجه عيون النظارة التى تكاد تخرج من محاجرها دون أن تشعر بأدنى اضطراب ! فما لها الآن لا تملك أمر نفسها ولا تكاد تمسك زمام مشاعرها ؟

ولكن ، ولكن ماذا يا رجاء ؟ وإيلك تكذبين على نفسك ، فما كانت همسات الغزل ولا نظرات الوله جديرة بأن تتفذ من أذنيك إلى قلبك حتى يخفق أو يهتز . أنت تعرفين إن مر هذه الكلمات قصير ، كالفقاقة المذعور . إنها تولد هنا فى السر لتموت هنا أيضا قبل أن يخرج الزوار ليهمس بعضهم فى أذن بعض قائلين : لقد كانت سهرة عامرة بالضحكات حافلة بالطرائف حتى شعرت برغبة فى العشاء مرة ثانية !

لا يا رجاء ! إنها كلمات ميتة لا تهز قلب عذراء . عذراء ؟ ماذا قلت يا رجاء ؟ أليست لك مغالطة أخرى ؟ أين أنت من العذارى يا فتاة ؟

لقد خرجت من حولك تلك الأردية الأطيفة الشفيفة التى تزفل فيها العذارى دائما كما تزفل الورود فى غلائل شفافة من قطرات الندى الصافية !

هذه الأردية التي تلف الطبيعة فيها عرائسها الصغيرة حتى تزفهن إلى العش السعيد . هناك حيث تمتد يد الرجل الموعود لتفك عروتها واحدة بعد واحدة !

الصمت الخجول .. الهمس المريب .. الحمرة الشفيفة .. البسمة العذراء .. كل هذه الأردية يا رجاء تمزقت عنك ... مزقتها عيون الرواد منذ كنت صبية في الرابعة عشرة من عمرك !

لا ! لست عذراء لست امرأة ... من أنت يا رجاء ؟

وهنا فقط بدأت حياتها تدور على نفسها إلى الوراء ، كانت تعرض أمام عينيها كل ما أخفته في ظلال الأيام ! كنت حبيبة صغيرة ذات يوم ، وكنت وقتذاك لا تكفين لحظة عن الضحك السعيد . كان يزهيك أن تنجحي في أداء الأدوار برغم ما فيها من قسوة لا تلائم عودك الغض وجسدك الرطيب ، مادمت ستسمعين أخيرا ذلك التصفيق المتواصل الذي تتمثرين في أصدائه وأنت تجرين في مرح خارجة من الحلقة ، وأيضا مادمت ستتنالين نصيبك من تلك الهدايا التي يؤثرك بها أبوك بين حين وحين ، وهي لا تخرج عادة عن النقود اللامعة أو الفساتين الجديدة أو العقود الغالية ثم ، ثم جاء اليوم الذي أصبحت فيه كما يقولون عن أمثالك عروسا !

كان قلبك الصغير يفتح أبوابه لهذا الضيف الخالد الذي يحمل في يديه غذاء الأرواح !

وبدأت أوقاتك تمتلئ بالرؤى البهيجة والأحلام الخضراء ، وكانت أيامك تمضي وكأنها تتراقص !

ومنذ ذلك الحين يا رجاء بدأت تدركين أن في الدنيا أشياء أخرى جميلة غير النقود وغير الفساتين وغير العقود ، بل أدركت يا رجاء أن هذه الفساتين الجميلة والعقود اللامعة والمطور الفواحة ليست في ذاتها الأمل المرجو والحلم الكبير ... إنما هي درجات في السلم المرتفع الذي يملو بنا إلى السماء الجميلة هناك ، حيث الرجل المنشود . الرجل الذي يضاعف من أعجابه جمال الفستان وعبير المطر وبريق العقد !

وهنا تعثرت خطوات أحلامك في نشوة الحقيقة الصلد ... تلك الحقيقة التي عرفتها بفطنة المرأة وغريزة الأنثى ، وانتهيت منها إلى أن هذا الرجل المنشود لن يدخل حياتك إلا من هذا الباب المسحور ... باب الحلم والوهم والخيال ... لأن جميع الأبواب الأخرى موصدة . يقف خلفها ذلك الرجل الموهوب . ذو النظرات القاسية والشارب الغليظ والتقاطيع الصلبة . ذلك الرجل الذي يملك من أمر هذا السرك كل شيء ، والذي

يناديه كل أفراد السرك يامعلم ، وتناديه أنت يا أبي ! ترى هل تأنت يارجاء لأنك تعرفين أن كل أب في حياة كل عذراء إنما يبذل قصارى جهده في تستر ولباقة ليظفر لابنته بالزوج المنشود .. ولأنك تعرفين أيضا أن هذا الرجل الموهوب إنما يبذل نفس الجهد في تستر ولباقة ليحول بينك وبين هذا الزوج المنشود !

إن انتقالك إلى بيت الزوجية معناه في لغة الواقع التي لا يجيد أبوك غيرها من اللغات ، معناه شيء واحد : هو أن ينتقل جميع أفراد السرك وعماله وعلى رأسهم أبوك نفسه إلى الشارع ليؤدوا دورا جديدا على ناصيته ، هو التسكع والبطالة !

أجل تلك هي الحقيقة التي لا تخفى عنها أحلامك .. فهؤلاء الرواد جميعا إنما يحضرون هنا من أجلك ، من أجل عينيك يا رجاء .. قومي وتأملي في المرآة عينيك ، تأملي هذا الإشراق الساحر الذي ينبعث منهما ليذكر الناس بأيامهم الجميلة . تأمليه لحظة واحدة لأنه ليس بمقدورك أن تتأمليه أكثر من ذلك ! ثم .. ثم طوفي بنظراتك حول هذا الوجه الذي تصلي أهدابه في محراب العيون .. ثم تذكري أنه ليست مرآتك وحدها هي التي تضم صورته ، وإنما هناك مئات من المرايا الأخرى تعكس نفس الصورة .. ولكن هنالك في قلوب الرواد ثم اهبطي بعينيك حول هذا القوام المشوق وتخيلي كيف يمكن أن يبدو وهو يتأود في خطوات مرتبكة داخل الطوق الحديدي الذي يبدو فوق سلك دقيق !

هذه السكاكين كلها يارجاء تجلب إلى أبيك مئات من الروادومئات ؛ ولكنها لاتستطيع أن تجلب إليك رجلا واحدا يمكنك أن تجلسي معه إلى مائدة واحدة وبينكما طفل صغير .. كهذا الطفل الذي قبل صورتك وهتف بصوت صغير بريء :

— الله : الصورة دي زيك تمام ياماما !

آه يا رجاء .. لقد لفحت هذه الكلمات مشاعرك كلها وهزت كيانك كله ونضرت أصداؤها الندية في أرض حياتك أوراق حلم ذابل !

آه يارجاء ! لقد تمنيت وقتذاك لو كنت مكان الصورة لتحسي وقع شفتيه الندتين على خدك ، وتتركي وجهك لحظة لأنامله الصغيرة تعبث به كما تعبث بالأشياء !! ومع هذا كله فإن أباك يعتقد أنه أراح ضميره أمام الله حين عرض عليك أن تتزوجي من أحد أفراد السرك وبهذا لايكون قد حال بينك وبين حقك الطبيعي في الحياة !

أرأيت إلى منطق التجار يارجاء ؟ إن حقك الطبيعي في نظره يتمثل في رجل ؛

مجرد رجل !! ولكن أنى لهذا الأب يارجاء أن يسبر غور أحلامك ليعرف أنك لاتريدين مجرد رجل ؛ وإنما تريدين حياة أخرى فى مكان آخر . هذه الحياة الأخرى التى تحلم بها كل عذراء مهما كان نصيبها من الجمال! هذه الحياة التى ترفرف فى عش صغير هادىء بجناحى زوج وطفل ! هناك حيث تقضين وجه النهار السعيد .. تغسلين الأطباق أو ترتقين الجوارب ثم تهيئين للزوج الغائب طعام الغداء ؛ حتى إذا عاد واحتواك بين ذراعيه فى لهفة وشوق وقال بصوت تغطمه القبلات .. هل من الواجب يا عزيزتى أن أشكر لك .. كل ذلك ! فأقول له : هنا إذا كان من الواجب أن اشكر لك هذه القبلات!

ولكن ولكن حسبك أحلاما يا رجاء ! فهناك حقيقة أخرى هائلة لن تغنى عنها أحلامك ... !

حقيقة تلك الصفقة التى عقدها أبوك مع الجمهور يوم باعه حياتك كلها وأعطاك هذا الثمن المزيف ... الهتاف .. التصفيق ... الإعجاب ... الشهرة ... ! كل هذه الفتافيع كانت هى الثمن .. ثمن القلب الذى ضاع وضاعت أحلامه والعمر الذى انقضى وإن سهرت حتى الصباح لياليه .. !

أتريدين أن تصدق حقيقة هذه الصفقة يا رجاء ، لتعلمى ماذا تقايل حياتك فى حياة الناس ؟

إسمعى يا رجاء ... إن لكل فرد من رواد السرك وزبائنه حياته الخاصة التى يعيشها بملء حريته ويمضى فى أرجائها على هواه حتى إذا أراد أن يلهو وأن يعبث وأن يمرض جزءا فارغا من حياته جاء إلى هنا حيث تقدمين له حياتك كلها .

أرأيت إذن إلى حقيقة الصفقة ، بل إلى حقيقة المهزلة . مهزلة حياتك يا فتاة .. !

هذى أنت يا رجاء فهل عرفت أخيرا من أنت ؟

وكانما أشفقت عليها الأقدار من التمادى فى تفكيرها هذا المر ... فاستوقف خواطرها رنين حاد متواصل تعودت رجاء أن تسمعه كلما اقترب ميعاد دورها فى اللعب !

ومضت لحظات قصيرة كانت بعدها قد لبست ما يلائم الدور الجديد من ملابس ؛ ولم تنس وهى خارجة أن تستعيد لشفتيها ابتسامة إنسان سعيد ، ولحركاتها رشاقة ظبى سارح . ولم تكد تظهر فى الحلقة حتى دوت جوانب السرك بتصفيق حاد كان يتخلله حشد من الكلمات النزلة والتحايا الشعبية !

وشيئا فشيئا بدأت الأصوات تسكن والحركات تهدأ والأعين تشرئب والنظرات

تعبر فى صدق عما يضطرب فى النفوس من قلق ودهشة وإعجاب !

كانت رجاء إذ ذاك تؤدى حركاتها البارعة وهى فوق سلم خشبى دقيق يرتكز فوق قدمى رجل قد استلقى على ظهره ورفع ساقيه فى خطين متوازيين بعد أن ثنى وركيه فوق صدره !

وحين فرغت من أداء حركاتها المثيرة كان عليها أن تقف لحظة كما تقضى قوانين الملعب لتحيى الجمهور وهى هناك فوق السلم الذى لا يعتمد على غير الله ... !

وبدون أن تشعر وجدت عينيها تتصفحان وجوه الجماهير بلهفة وشوق وكأنها قارئ يقلب أوراق كتاب ليعثر على صفحة خاصة .. وأخيرا وقعت عيناها على تلك الصفحة الخاصة كانت تحمل صورة لأسرة صغيرة قوامها زوج شاب وزوجة فى نهاية العقد الثانى وطفل صغير ... !

ولا تدرى لماذا أحست كأنه لا يوجد فى السرك سواه .. ذلك الطفل الذى التفت عيناها بعينيه فى نظرة عميقة ! شعرت رجاء بعدها بأن كيانها كله يهتز وجسدها كله يتقلص

و ... و ... ولم تعد بعد ذلك تشعر بشىء !

* * *

يا صديقى ... ترى هل أنت فى حاجة بعد إلى أن تسمع بقية القصة ؟ لا أعتقد ولكن الوقت الواقع يوجب أن تسمع تلك البقية من أفواه الجماهير التى خرجت وقتذاك ولا حديث لها سوى تلك البقية !

كان البعض يردد فى أسى وأسف مسكينة ! يبدو أنها كانت مرهقة من طول ما تؤدى من أدوار ، ويبدو أن هذا هو الذى جعلها تفقد توازنها فى اللحظة الأخيرة !

وكان البعض الآخر يؤكد أنها قد حسبت ، ثم لا شك فيه أنها كانت مثار إعجاب خطر ... !

وكان لا يزال هناك فريق آخر يبدو أنه كان أكثر ذكاء من بقية الناس ؛ فقد كان هذا الفريق يهز رأسه بغير اكتراث كما يفعل الأذكياء ؛ وكان يقول بصوت خافت ممطوط : إنهم يفعلون ذلك عادة استجلابا لعطف الجمهور !

محمد أبو العاطى أبو النجا